الصحراء: الملجأ المقدس، قراءة في تجربة الحبيب السائح الروائية

The Desert : the Sacred refuge.
Reding in a novel experience of Al habib sayah

إيمان جريدان[1] *، الأخضر بن السايح[2]

[1] مخبر علوم اللسان، كلية الآداب واللغات– جامعة الأغواط (الجزائر)، imanedjeridane@gmail.com

[2] مخبر علوم اللسان، كلية الآداب واللغات– جامعة الأغواط (الجزائر)، lakhdarbensayah@gmail.com

Imane Djeridane[1]*, Lakhdar Ben Sayah[2]

Tongue science laboratory University of Laghouat (Algeria)[1]

Tongue science laboratory University of Laghouat (Algeria) [2]

تاريخ الاستلام:2021/07/29 **تاريخ القبول:2022/03/02** **تاريخ النشر:2022/04/15**

ملخص: عرفت الجزائر في سنوات التسعينات أحداثا دموية عنيفة، طالت المكان والإنسان. تعرض خلالها الكثير من الكتاب والفنانين والصحفيين إلى عمليات اغتيال مؤلمة، هاجر على إثرها عدد منهم إلى بلدان عربية وأجنبية، في حين لجأ البعض إلى صحراء الجزائر الكبرى، طلبا للأمن والسلام في مراتعها الشاسعة.

ومن بين هؤلاء الكتاب الذين اتخذوا الصحراء ملجأ لهم الكاتب "الحبيب السائح" الذي عاش تجربة منفى مختلفة، بعيدا عن عنف المدينة وصوت الرصاص والمتفجرات. فكتب على إثر هذه التجربة نصوصا روائية بارزة، منها (تماسخت.. دم النسيان) و(تلك المحبة).

انطلاقا مما سبق سنسعى في هذه الدراسة إلى عرض تجربة "الحبيب السائح" الكتابية، متخذين روايتيه السابقتين نماذج تعكس مسار ولوج الكاتب عالم الإبداع في الصحراء، واكتشافه لكنه المكان، وبكارة المعنى المغيب.

إشكالية الدراسة: –إلى أي مدى ساهمت تجربة اللجوء إلى الصحراء في إبداع وتميز "الحبيب السائح" ودخوله عالم الشهرة في الكتابة الروائية ؟

–هل شكلت روايتاه محل الدراسة الناتجة عن منفى مختلف إضافة حقيقية في عالم الكتابة لديه؟

الكلمات المفتاحية: الحبيب السائح، تماسخت، تلك المحبة، الملجأ، الصحراء.

Abstract: In the 1990, Algeria witnessed violent and bloody events that affected both the place and the people, during this many writers, artistes and journalists were subjected to painful assassinations.

As a result, a number of them migrated to Arab and foreign countries, while some of them migrated to the Algerian desert seeking security and peace in its vast lands

Among these writers was Al habib sayah who lived a different experience in exile a way from the city violence and the sounds of bullets and explosives. He wrote prominent narrative texts as a result of this experience From these narrative texts(tamassikht, that love) Based an the foregoing, we will seek in this study to present the experience of al habib sayah using his two previous novels as models that reflect the path of the desert and his discovery of the novel.

-problematic study:1.To what extent did the experience of resorting to the desert contribute to the creativity and distinction of the writer and his entry into the world of fame in Fiction writing?

2.Did his novels the subject of study resulting from a different exile constitute a real addition to the world of his writing.

Keywords: al habib sayah, Tamassikht, that love, Refuge, Desert.

* جريدان إيمان

1.مقدمة:

أفضت تجربة عنف المدن، والحروب الأهلية، والاضطرابات السياسية والاجتماعية التي يشهدها العالم العربي اليوم إلى ولادة عدد من الكتابات الإبداعية، التي واكبت ولاتزال هذه التجارب المؤلمة، متجاوزة حدودها التوصيفية والتوثيقية إلى ارتياد فضاءات سردية جديدة، من خلال مسارات المنفى خارج وداخل الوطن. والمعروفة بأدب الرحلة، وأدب السجون، وأدب المنفى.

من بين هذه المسارات، تطالعنا تجربة الكاتب الجزائري " الحبيب السائح" الذي اتخذ من الصحراء ملجأ، ومنفى اختياري له. حفزه على التجديد في كتابة الرواية، وخرق المألوف في تشكيل المضامين، وتحديد امتدادات السرد. وقد تمخض عن تجربة المنفى هذه، ظهور روايتين بارزتين له، هما رواية (تماسخت، دم النسيان) ورواية (تلك المحبة) واللتان عكستا تجربة حياة الكاتب " الحبيب السائح" في منفاه الجديد زمن العشرية السوداء في الجزائر.

انطلاقا مما سبق سنرصد المسار الإبداعي للكاتب، ومدى تأثير ومساهمة تجربة المنفى في إعادة توجيه قلمه، واتخاذه وسيلة للتثوير والتجديد والمواجهة. ساعين إلى الإجابة عن إشكاليتين أساسيتين، هما:

-إلى أي مدى ساهمت تجربة اللجوء إلى الصحراء، والمنفى المختلف في إبداع وتميز الكاتب، ودخوله عالم الشهرة في الكتابة الروائية؟

-هل شكلت الروايتان محل الدراسة، إضافة حقيقية في عالم الكتابة لديه على صعيد المضامين والتقنيات السردية؟

2.بدايات المسار الكتابي والصدمة:

في بداية مساره الكتابي، خاض الكاتب " الحبيب السائح" تجربة كتابة القصة في السبعينات، ثم انتقل إلى كتابة الرواية. فكانت (زمن النمرود) سنة 1985، والتي صودرت في نفس سنة النشر. بسبب طابعها الثوري، الذي أبرز فيها صاحبها المسكوت عنه. وقد صرح حولها الكاتب في الكثير من الفضاءات الإعلامية أنها تجربته الأولى التي سببت له صدمة صاعقة، جعلته يتخلص من بدعة الجماهير وأكذوبة الأدب الملتزم، على حد تعبيره. فتحرر من أسر الانتماء، واستوعب أن الكتابة الأدبية حرية ضمير مستقل.

على إثر رواية (زمن النمرود) كتب رواية (الخيانة) التي راهن فيها الكاتب مع ذاته، بأن يكتب للنخبة، ويسمو على ما هو جماهيري. إلا أن هذه الرواية لم تلق طريقها للنشر، بسبب جرأتها.

واصل الكاتب مساره الكتابي، متحديا كل العراقيل التي أمامه، والتي كانت تتعمد كتم صوت كل كاتب يتجرأ على السلطة ورموزها. فكتب سنة 1990 رواية (ذاك الحنين) والتي اعتبرها العديد من الدارسين والنقاد طفرة في الكتابة الروائية في الجزائر، ونقلة نوعية من حيث أشكالها السردية، ومتنها الروائي.

تجربته الروائية الثالثة هذه، جعلته أكثر إيمانا بصياغة وجوده، بعيدا عن كل سلطة قامعة، ومسيرة لأفكاره، ورؤاه وقناعاته.

3.محنة الحرب الأهلية والمنفى:

في سنوات التسعينات، بدأ صراع دموي مفجع بين النظام الجزائري وفصائل متعددة، عقب إلغاء نتائج الانتخابات البرلمانية لعام 1991 في الجزائر، مخافة من فوز الإسلاميين فيها. استمر هذا الصراع حوالي عشر سنوات راح ضحيته حوالي مائتا ألف قتيل.

الرعب الذي تلبس الروائيين الجزائريين، بسبب هذا الصراع، هو الذي حدد شكل الكتابة لديهم. وغدت رواياتهم أشبه بالتقارير الصحفية التي تتناول قضايا فساد الدولة، وجرائم الجماعات المسلحة. فوصفت الرواية الجزائرية في هذه الفترة بأنها أصبحت تاريخية، بحكم رهانها على توثيق الحقائق ونقل الوقائع.

الكاتب "الحبيب السائح" شأنه شأن معظم الروائيين شغلته مآسي الحرب الأهلية، وهاله انهيار مشروع الدولة التحديثي. غير أن لجوء الكاتب إلى الصحراء- منفاه الاختياري- منحه الصبر والتأمل، فلم يقع في مطبات ما يسمى بالأدب الاستعجالي. فكتب بتأن روايتيه (تماسخت، دم النسيان) و(تلك المحبة).

استحضر من خلال رواية (تماسخت) قصة معاناة مراسل صحفي، يعيش كوابيس مفزعة وغريبة، بسبب تعرضه للتهديد بالقتل. سافر إلى تونس ثم إلى المغرب، طلبا للجوء السياسي، لكن الجهات المسؤولة هناك خيبت ظنه فعاد إلى الجزائر يجر أذيال الخيبة، مستسلما للموت كما زملائه الذين تم اغتيالهم بأبشع الطرق.

من يقرأ هذه الرواية يدرك حجم التواشج الكبير بين حياة البطل، وسيرة الكاتب، من حيث أجزاء من حياته، ومن حيث رؤاه وقناعاته.

أما رواية (تلك المحبة) فهي قصة عشق لمدينة احتضنته أيام وحدته وخوفه، فاستحضر بصورة مكثفة وغير مألوفة تاريخها القديم والحديث، وعاداتها ومعتقداتها، وقاموسها اللغوي، وفضاءها الصحراوي الساحر بقصورها وطرزها المعمارية المبهرة.

4.الصحراء، المنفى الاختياري والإبداع:

الصحراء الملجأ المقدس، تركت أثرا كبيرا على كتابات "الحبيب السائح" وصبغتها بالكثير من التميز والإبداع. خاصة ما يتعلق منها بالتخييل الروائي، والوعي اللغوي، ورؤيته لقضايا التاريخ والمجتمع. وهنا سندرج أهم ما تميزت به تجربته الكتابية في المنفى.

1.4.شعرية التفاصيل واستراتيجية الحواس:

أدرك الكاتب أهمية الوصف في تشكيل العمل السردي، وبناء الأحداث وتكثيفها وبلورة إيقاعها، فمنح نصه الروائي (تماسخت) مشاهد وصفية قصيرة، لكنها تنضح بمياسم الإيحاء والإثارة. وهي مياسم كسرت رتابة السرد وقللت من حدة مشاهد الموت والألم، زمن الحرب الأهلية.

فوظف في وصفه الحواس بكثافة عالية، خاصة ما يتعلق منها بالروائح والألوان والأصوات، والظلال والغروب والمطر. واستطاع بتقنية الاسترجاع الزمني أن يسافر بالقارئ إلى فضاءات طفولته، حيث بيتهم الريفي، ونهارات الربيع الجميلة، والمروج الخضراء، المكسوة بالنوار وشقائق النعمان:

- «واستسلم لشعوره بأنه تذرى سمادا في أرضهم، هنالك حيث بيتهم الريفي، فأشرق منه ربيع بالنوار والنواش وشقائق النعمان.

وإذ قام خالجه وجه جميلة باسما نديا، يفك عن شعرها الكستنائي محرمتها الموردة.» (السائح،2016، ص.60)

-«غمرته رغبة في النزول إلى قاع البحر ليصعد في مداه كرية هواء فيرى كيف تبتسم الشمس لجزائر جميلة محزونة. ووجد أن نبضه انضبط على إيقاع لهاث البحر، تساقط حبات المطر على سطح السقيفة تنقر نقرا، كالذي على قرميد بيتهم الريفي هدهده بمائة حلم في ليالي الشتاء.» (السائح، 2016، ص.142)

التناوب بين صور الدم والفجيعة والاغتيالات، وبين مشاهد جميلة وهادئة للقاءات حميمية، أو لماض طفولي حالم، يحقق متعة في القراءة، وينأى بالنص من الوقوع في الأدب الاستعجالي، الأشبه بالتقارير الصحفية عن فجيعة الحرب. وهذا ما يمكن تسميته بالشعرية الروائية، أو بالشاعرية الصناعية: «التي تقلد الشعر في تلك اللغة الرومانتيكية الصناعية التي يستخدمها الروائيون في رواياتهم، إنها الشاعرية التي تتشكل من الحالة والمشهد».
(المناصرة، 1990، ص.458)

أن يصف الكاتب مشهد ألم بأسلوب شاعري، لا يعني ذلك تناسيه أو تهميشه للألم، بقدر ما هو تخفيف من مرارته ووجعه. يقينا منه أن لغة الصحفي ولغة المؤرخ الصريحتين، غير لغة الروائي الحالمة.

يكتب واصفا بأسلوب شاعري مشهد تفجير قنبلة في حافلة النقل العمومي:

– «كان الانفجار انشطارا من الجحيم. فتجمعت الأشلاء إربا إربا. وانتشرت الفرائس ممزقة وترصعت بالنثار بقايا الواجهات التي نسفتها الشظايا فندب شجر التوت للدلب حزنه. وانجزر البحر عن أرصفة الميناء. وتعجلت الشمس، كانت مشرقة، غيابها. ونظر النهار إلى زمنه ثم فر.». (السائح، 2016، ص.144)

من المرجح أن العزلة التي عاشها الكاتب في الصحراء، كانت من بين أهم الأسباب التي دفعته إلى الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة في سرده للأحداث، ووصفه للمشاهد. ليس حشوا ولا إطنابا، بل لحملنا على مساءلتها عن علاقتها بالحب والجمال، الحياة والموت:

–«وزعموا أنه لم تكن غير يد السيدة حزمت المصنف بخيط مذهب سل من قفطان الأميرة الزناتية، كان إسماعيل الدرويش عاد به من سفرته تلك. ثم عطرته بخليط من زهر الرمان المجفف والكحل والريحان والقرنفل والحبة الطيبة وتمر تقربوش وجوزة الطيب والحناء والزيت والرماد والرمل المحرق.». (السائح، 2016، ص.94)

إن حضور المطر والخمر والورود وأنواع النخيل والتمور، وحميمية اللقاءات، والحب والمرأة وغواية الجسد، بشكل مكثف في الروايتين، يعلن عن انحراف التجربة الكتابية للحبيب السائح، ويؤكد على تغير نظرته الجمالية إلى ذاته وإلى العالم من حوله. غير أن دخول تيمات جديدة في دائرة اهتمام الكاتب لم تدفعه لإقصاء تيمة الموت، أو ركنها إلى الهامش، إذ هي حاضرة دائما في نصوصه السابقة واللاحقة، من مثل تفجيرات رقان النووية، وجرائم الإبادة المنظمة، وفساد أنظمة الدولة، مجليا بشكل مستمر حماقة الإنسان على الأرض.

كذلك حضور الخمر وأنواعه في (تماسخت)، والمشاهد الجنسية، بكثير من التفاصيل في (تلك المحبة) هي تمرد صريح لمواجهة ثقافة الإلغاء التي تمارس وبشدة على النصوص الإبداعية. يقول الناقد "محمد تحريشي" في هذا الإطار:«جاء فعل الخمر ليؤكد على الشاذ والناشز والمسكوت عنه».(تحريشي، 2000، ص.128)

إن توظيف استراتيجية التفاصيل في وصف جماليات بعض الأشياء والأمكنة والعمران والشخوص، تجعلها ناتئة أكثر من غيرها « كي نتلقاها دون غيرها أو نتلقاها أعمق من غيرها». (نجمي، 2000، ص.121). كما أنها مشاهد تعكس جوهر الوجود الإنساني، الذي لم يخلق للفساد وسفك الدماء على الأرض، بل خلق لتعميرها بالجمال والإبداع.

2.4.عشق وأنسنة مدينة:

وجهت العناية الإلهية الكاتب في فترة الحرب الأهلية إلى مدينة أدرار، في صحراء الجزائر الكبرى، حيث مكنه هذا المنفى من ولوج تجربة كتابية سابقة، تعد علامة فارقة في تاريخ الرواية الجزائرية. بعد توغله في التعرف على عناصر الفضاء الصحراوي التاريخية منها والأنثروبولوجية والإثنية، والمعمارية والثقافية والروحية. فكان له فضل السبق في كتابة روايته (تلك المحبة) التي اعتبرها النقاد أول رواية جزائرية، مكتوبة باللغة العربية تناولت الفضاء الصحراوي بعمق.

هذه التجربة الفارقة، علمته معنى عشق مدينة. فقدم مدينة أدرار بصورة مغايرة وغير مألوفة. قدمها في صورة ملائكية لأنثى، فاتنة الجمال، مثيرة للدهشة. هي البتول البطلة الرئيسية في الرواية، ومحور كل أحداثها، ومحط اهتمام كل شخوصها:

– «أنفتح لك كتاب محبة مخبوءا بين ضلوعي تقرئين فيه بحرف الماء وصوت الرمل ما كتبه النور في عيني لأرى رقوم وجهك الجميل، مثل إشراق صبح أعارته ليلة مقمرة بقية من ضياء وترصيع. وأسمعك تستخبرين قدرك سر هذا الأمر الغريب أن أكون محطتك الغائبة في سفرة عمرك تجدينها كما كنت حلمت، مثلما أنت تبغين، وأن تكوني وحدك المرأة واهبة الحياة في الصحراء وباعثة الغيرة في صدور النساء وناشرة الفتنة في دولة الأيام ومفتقة الغواية في قلوب الرجال.». (السائح، 2016، ص.25)

مدينة كالأنثى، استحضر من خلالها نموذج المرأة العربية في الإسلام، واستدعى من خلالها الكثير من الرمزيات المرأة الدنيا، المرأة الحياة، الاستمرارية، المعرفة، الحقيقة، المثالية، الحب، التسامح، السلام، الجمال، السحر، الغواية.

لم يلجأ الكاتب إلى أنسنة المدينة لإثارة المتلقي وتشويش فهمه للأحداث فحسب، بل ليعكس سطوة المدن على الإنسان، ويبين قدرتها على اختلاس دور البطولة منه، فتغدو بذلك مدن صديقة أو مدن عدائية.

عشقه لمدينة أدرار، جعله يغوص عميقا في حقبها التاريخية، منذ أن أسسها الأجداد على أركان من ماء، وحفر فقاراتها العبيد، فكانت جنة في الرمل. تعاقبت عليها أفول الأمم وقوافل التجار، وسكن قصورها وقصباتها العرب المسلمون واليهود والمسيحيون. فكانت أيقونة للتعايش والسلام بين الأديان:

–«فكرة الموضوع أن هذه الصحراء على قدر قساوتها لا تزال تمنح الأمان وتعطي الاطمئنان وتقبل التعايش. ثلاثة أبعاد لا توجد في مكان آخر». (السائح، 2016، ص.192)

درج الكاتب في نصوصه السابقة على استحضار التاريخ، لكن منفاه الجديد، وعشقه لمدينة أدرار، علمه التوغل أكثر في التاريخ المحلي والإسلامي، وشجعه على تأريخ الحاضر، وإنتاج معرفة تاريخية بالماضي. فكان أن أدرج سيلا من النصوص التاريخية والأنثروبولوجية لتثمين التراث المحلي لمدينة أدرار وحواضرها، فضلا على تبطينها بإيديولوجيات يرغب الكاتب في طرحها ومناقشتها. من ذلك تعرضه للوجود اليهودي في المنطقة، الذين وفدوا إلى الصحراء فارين من محاكم التفتيش إثر سقوط الأندلس :

– «لم يكن لأولئك اليهود خروج على وجه أو بسيطة ولا سير في منكب من الشتات إلا خسفوا فهاموا عبر البحار وفي الجبال والأودية والأنهار بحثا عن منجى لهم من الصغار لحقهم على يد ملك النصارى الجبار في الجزيرة

الخضراء بالعسل والأنوار يوم نكب المحمديون في مجد لهم وتلد ثمانية قرون من المعرفة والبزوغ والذوق والرقة والرفاه.» (السائح، 2016، ص.28)

هذه اللمحة التاريخية، تعكس أيضا تنوع التركيبة السكانية في مدينة أدرار، المدينة الصديقة، التي تتقبل الآخر المختلف. فضلا أنها إضاءة من الكاتب على تنوع المجتمع الجزائري وتسامحه.

استحضار مدينة الأندلس، الفردوس المفقود هو ديدن الكثير من الروائيين العرب، الذين يستدعونها كرمزية للمجد الضائع. والجنة التي شيدها الأجداد في القارة الأوروبية، حالمين بإعادة هذا المجد في أوطانهم، التي أقل ما يمكن وصفها به أنها أوطان قاسية، إن لم نقل أوطان عنيفة:

-«لكن هذه الجزائر مجنونة خالبة وسريالية ! كلما أظهرنا لها عشقنا أفسحت إلينا نحو الموت على صدرها كأطفال ينامون ! إنها قابعة هنا في ذاكرتنا، في عمق نسياننا. ضميري يترجرج لمجرد ذكر اسمها !»

(السائح، 2016، ص.142)

الكاتب "الحبيب السائح" أورد العنصر اليهودي في روايتيه، مؤكدا قناعاته بضرورة التعايش بين أصحاب الأديان المختلفة، وهي قناعة سخر لها قلمه كثيرا. تبلورت أكثر في روايته الأخيرة الحائزة على جائزة البوكر (أنا وحاييم). مبرزا في ذات الوقت أن حماقات الإنسان المتمثلة في نقض عهود السلام بين الأمم، والحروب والحملات الاحتلالية والجرائم الإبادية، ما هي إلا تجبر وجشع إنساني لا علاقة للرب فيها:

-«فلم يكن القتل يوما واجبا مقدسا اتجاه الرب» (السائح، 2016، ص.189)

إن فكرة الانفتاح على الآخر المختلف، والتعايش معه، بعيدا عن عنجهية العنصرية والإلغاء والطمر، هي فكرة ازداد الكاتب إيمانا بها، بعدما رآها واقعا أمامه في مدينة أدرار.

3.4.فيض اللغة والخاطر:

كما نحن، القراء الجيدون ! قرأ الكاتب "الحبيب السائح" قبل بدايات مساره الكتابي كثيرا من الكتب والروايات المحلية والعالمية، روايات من الأدب الشرقي والفرنسي والروسي، وأدب أمريكا اللاتينية كثلاثية الدار الكبيرة لـ "محمد ديب"، والبؤساء لـ "فيكتور هيجو" والأم لـ "مكسيم غوركي". وكتب في السير والتاريخ والسياسة والدين والأدب. إضافة إلى تأثره بعدد من الأفلام السينمائية البارزة العالمية منها والإقليمية.

تأثير هذه الأفلام والكتب والروايات، يظهر جليا في معظم كتاباته. الكاتب "الحبيب السائح" كما "فيكتور هيجو" و"مكسيم غوركي" و"محمد ديب" يتطرق بشكل كبير ومستمر لقضايا البؤس والفقر، والظلم والفساد. لذلك يمكن وصف قلمه بالجريء والثوري.

غير أن طابع كتاباته هذا، عرف منعرجا واضحا بعد رحلته إلى الصحراء، فوسمت نصوصه بصبغة صوفية. وإن كنا قد تلمسنا شيئا من عبثية "ألبير كامو" في روايته (تماسخت)، فإن روايته (تلك المحبة) كانت غارقة في فيض من الروحانية والصوفية.

يقول الكاتب مجيبا عن مصدر البعد الصوفي في كتاباته: « لعل مصدره مما ورثته من أسرتي ومن زهد والدي ومحبة والدتي لي ومن ثقافتي وقراءاتي وتجاربي في الحياة، وخاصة من رحلتي إلى صحراء أدرار، التي لا تزال قائمة إلى اليوم

حيث كتبت رواية "تلك المحبة" عربون محبة لأدرار التي حضنتني بعد عودتي من تونس وآمنتني ومنحتني ما لم تمنحني إياه منطقة أخرى.». (بيومي، 2019، ص.68-75)

الصحراء، أنّى آذان المساجد، وتراتيل المقرئين في الزوايا والمدارس القرآنية تملأ الأفق، وأجراس الكنائس تخرق صمت العزلة والوحشة، يتقرب الإنسان أكثر إلى الله عز وجل، ويتلبسه شعور بالكونية، وعظمة الخالق، فتعتريه رغبة جامحة في الوصل الدائم مع الله تعالى:

-«الله في الصحراء أقرب إلى القلب منها في أي مكان آخر.». (السائح، 2016، ص.205)

-«همس لها: ((أحس المجهول كله يسكنني. لا نور ولا ظلمة. عجيب ! كأني ألمس سر مجيئي.)) فغمرتها خشعة كتلك التي للمعابد والأضرحة. وأخفتت له: ((كأني سمعت تراجيع آتية من عمق ما وسعته الوحشة أمامي ووراءي فوقي وتحتي. أشعر أني معطوفة بالإطباق، ملفوفة بالانقياد، فارغة الذهن من أي ماض.)) ».

(السائح، 2016، ص.224)

الإحساس بالكونية، دفعه إلى توظيف استراتيجية التناص الديني إلى حد التشبع، وإلى الدرجة التي يمكن القول فيها أن الكاتب اعتمده كآلية تفاعلية، تفتح نصوصه على أفق وإمكانيات تعبيرية ودلالية وروحية ثرة، بأشكال سردية جديدة. فنجده متح من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والعهدين القديم والحديث، وعدد من المخطوطات والمصنفات، وكتب كبار المتصوفة كابن العربي والنفري والحلاج.

من بين هذا التفاعل الديني، نجد التناص مع القرآن الكريم:

-«أحسّني أسبح في الملكوت حين أسمع ترتيل عبد الباسط يرقى بضياعي إلى منتهى غيابي في الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر، وأتذرى على شعاع من نور لم تمسسه نار!» (السائح،2016، ص.95).

التعالق النصي هنا مع سورة يوسف، في قول الله تعالى:((إذ قال يوسف لأبيه إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين)) (سورة يوسف، الآية.14). استحضر من خلاله الكاتب قصة سيدنا يوسف عليه السلام، الذي تنكر له إخوته، ورموه في غيابات الجب، فعانى الأمرين، وحشة المكان ووحشة الروح. فضلا أنه تعالق يعكس تأثر الكاتب بفكرة الرؤى والأحلام وتفسيرها. وهي الفكرة التي وظفها وبقوة في روايته (تماسخت) التي استهلها برؤيا، وختمها بيقظة. بل وكانت الرؤى والكوابيس تتلبس بطل الرواية، الفار من الموت، طيلة أحداث الرواية.

ما بين الكثبان الرملية واخضرار الواحات، في مكان ظليل، وجو طافح بالروحانية والحب العذري، الذي جمع بين جولييت الفرنسية المسيحية والطالب باحيدة المسلم، يستحضر الكاتب السيدة مريم البتول عليها السلام في قوله:

-«لو كان فيها بلح لطلبت منك أن تهزي.». (السائح، 2016، ص.207)

التواشج هنا مع سورة مريم، في قوله عز وجل:((وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا)). (سورة مريم، الآية.25)

هذه السورة الكريمة، التي صرح الكاتب في أكثر من لقاء أنه يحب نظمها، أراد من خلالها أن يعكس أفكارا عدة متعلقة بالطهر والعطاء، والحب والعناية الإلهية، والحياة والاستمرارية من الإخصاب والنخيل. بل حتى جمعه بين

البطلين جولييت وباحيدة في علاقة محبة صادقة، يرسخ فيه إيمانه بأن الحب يقهر المسافات وكل الحواجز الإثنية والعقائدية.

المرأة، دائمة الحضور في أعمال الكاتب، لكن حضورها في روايته (تلك المحبة) بدا مختلفا ومكثفا. استحضر نساء من جميع الديانات كالبتول ومبروكة المسلمتين، وماريا وجولييت المسيحيتين، وبنت كلو وبنت هندل اليهوديتين وجعل حضورهن ينضح بالدلالات والتأويلات. كما حرص على ربط حضورهن بالجمال والغواية، والمعرفة والحقيقة.

وفي هذا المقطع السردي يستدعي شيخ العارفين "محيي الدين ابن العربي" ليقدم رؤيته المميزة للمرأة، كما يستشهد بحديث نبوي شريف في ذلك:

-«ورجاه: لو يشرح لي سيدي معنى: حبب إلي من دنياكم ثلاث: النساء والطيب والصلاة. فإني أسألك بمقامك لماذا قدم النساء وأخر الصلاة ؟« فغمر وجه الشيخ سلام، إذ قال: »إنما الصواب: وجعلت قرة عيني في الصلاة. فاسمع شيخ العارفين يقول: لأن المرأة جزء من الرجل الذي هو كلها، فمتى ما عرف الرجل هذا اقترب من معرفة خالقه». (السائح، 2016، 244-245)

المتتبع لكتابة "الحبيب السائح" يدرك مقدار حبه للمرأة، التي هي الجدة والأم والحبيبة والصديقة والأخت والبنت. لذلك كان حضورها مكثفا جدا في أعماله. وما التفاعل السابق مع الحديث النبوي الشريف، إلا تأكيدا على مكانتها الموسومة بالرفعة والعلو.

- «والمرأة هي المرأة المخلوق الجميل الفاتن في توات، في التل والصحراء، في الأرض والسماء، في الدنيا والآخرة.» (السائح، 2016، ص.295)

الفضاء الصحراوي أثرى القاموس اللغوي للكاتب، وشحنه بأساليب وألفاظ جديدة، من عمق الحياة في أدرار وحواضرها. فأتاح بذلك فرصة للقارئ ليتعرف على مسميات جديدة لآلات موسيقية، وأسلحة وأواني، ومأكولات وتمور، وزواحف ونباتات، وألبسة وأفرشة. بل لأمكنة ومواقع جغرافية وحواضر وواحات يجهلها الجزائريون أنفسهم من مثل: (إمزاد والتي هي آلة موسيقية وحيدة الوتر، والدكالي الذي هو نوع من الأفرشة الصوفية).

ناهيك عن الألفاظ والعبارات الأمازيغية. مثل أسماء الأعلام للأشخاص والمناطق والجبال: (تيمياوين، تنزروفت وتينولاف، أتاكور، تينهينان، داسين). عاكسا بذلك غنى وثراء اللغة المحلية للمدينة.

هذا الثراء فتح أمامه أيضا أفق الخوض في تيمات جديدة كالحديث عن النخيل والتمور وأنواعها، ووصف القصور والقصبات الأثرية العريقة التي تتميز بها حواضر ومدن الصحراء. فضلا عن عادات أهل الصحراء في طرق إقامة عزائهم واحتفالياتهم في الأعراس والختان والمناسبات الدينية والمحلية. حتى الأمكنة والمدن عرفت توسعا في كتاباته التي كانت محصورة قبلا في مدن الشمال.

كما استخدم الكاتب كثيرا أسلوب القص والروي في روايته (تلك المحبة)، متأثرا بالرواية الشفوية السائدة في البيئة الصحراوية وبحكايات التراث العربي القديمة. فنجده يستهل سرده في عدة مقاطع بـ: (وزعموا، وحدثني وروت. وذكر.) ليضفي طابع التشويق على روايته الطويلة نسبيا، والمكثفة المواضيع.

نلاحظ أيضا زخم وتسلسل وتتابع التشبيهات الجميلة، والغريبة أحيانا، مبرزة مدى شاعرية الكاتب التي أمدته إياها الطبيعة في الصحراء، والتي جعلته متأملا، حالما، أكثر مما كان عليه في صخب الحياة في المدن التلية. وفي هذا

الإطار تقول الباحثة صليحة مرابطي: « تتراكم الحالات وتتجاور إلى بعضها عن طريق أسلوب التشبيه أو التماثل وهذا الأسلوب يفتح المجال للتنويع اللغوي، كي يتمظهر عبر مختلف الصور التشبيهية البلاغية، التي تقوي وتجمل صورة اللغة». (مرابطي، 2012، ص.29)

ظاهرة تتابع التشبيهات وتجاورها وتلاحمها وتراكمها تباعا ترد غالبا عند الكاتب بغرض التأكيد، ومنح النص نسقا من الإيقاع الجمالي:

-«نظر إليه بسؤال. فأجابه على هيئة شجرة مرت عليها عاصفة.». (السائح، 2016، ص.82)

-« كانت رومانسية جدا. تعزف ألحانا مثل المطر والريح وأصوات الطيور وفرحة الأطفال، مثل رقص العرائس وحفيف الشجر وغضب الرمال وخرير المياه وانهيار الجدران، تصل العفاريت فتكبل فيها شرها مدة السماع.». (السائح، 2016، ص.127)

-«كان ممن أدركوا بذوقهم كون البتول لا يموت فيها شيء منفصلا عن شيء إلا كلية، كأنها ولدت فجاءت كما هي طفرة، ولا تقضي إلا كذلك من غير مرض ولا عجز، كخط من الرمل، كهبة ريح كزخة مطر كالثلج كالسلام والنار، أبية كشجر العرعار، ووقورا كصمت كالتراب.». (السائح، 2016، ص.291)

المتتبع للغة الكاتب الساردة، يلاحظ أنه ارتقى بها في جميع المستويات: على مستوى الإيقاع والبنية السردية والبنية الأسلوبية، والأفعال والأسماء النادرة. وذلك لتأثره الشديد بنظم القرآن الكريم، وبأسلوب المصنفات التراثية والمخطوطات العريقة التي يحتفى بها كثيرا في المدن الصحراوية.

ما من شك، أن طبيعة المناخ والبيئة يتركان أثرهما الجسدي والنفسي على الإنسان. وقد كتب عدد من الجغرافيين العرب الأوائل والمحدثين حول هذا التأثير. ك "الأصطخري" في مسالك الممالك، و"المسعودي" في مروج الذهب. يقول "المسعودي" في تأثير الهواء على مزاج وطبيعة الإنسان:

-«إن تغير حالات الهواء هو الذي يغير حالات الناس مرة إلى غضب ومرة إلى سكون، وإلى الهم والسرور وغير ذلك، وإذا استوت حالات الهواء استوت حالات الناس وأخلاقهم، فإذا تغير الهواء تغير بتغيره كل شيء.». (المسعودي، 1889، ص.528)

كذلك الصحراء، تركت أثرها على الكاتب، فظهر ذلك جليا في كتاباته. الصحراء أمدته بالشاعرية، والصبر والقوة، ومنحته شعور الانتصار على الموت. كما علمته الصرامة في الخيارات الثنائية. فكان واضحا ومتشبثا برؤاه لا يغيرها من أجل إرضاء جهة ما، للحصول على ثناء أو جائزة ما:

-«عندما نختار نصبح ملزمين بأن نأخذ كل شيء أو نترك كل شيء. هكذا هي الصحراء، صارمة في الخيارات الثنائية: أهل ووحشة. برد وحر. عصف وصمت. الله والتوه، لا شيء بينهما. الحقيقة والضلالة. لذا كانت الصحراء من أقسى الطبائع في الانتقاء.». (السائح، 2016، ص.207)

الصحراء، إذن علمته الاعتدال والمواجهة والشجاعة وقول الحقيقة، فلا يتحيز مطلقا. فكان شجاعا في تأصيله للعنف في التاريخ الإسلامي، فذكر فظاعة ما فعله بعض الحكام والأمراء العرب من قتل وتعذيب شيوخ الدين والمعرفة، والفقهاء والمتصوفة. كتعرضه لمقتل "السهروردي" و"الحلاج" والتنكيل بهما في روايته (تماسخت). كما تعرض لجرائم الإبادة التي ارتكبها الجيش الفرنسي إبان استعماره للجزائر كتجارب رقان النووية، وإبادة قبيلة بني

السبع. كذلك طرحه لظاهرة الفساد والنهب في الجزائر، كتسليطه الضوء على فساد المستثمرين ، الذين نهبوا الأموال وفروا، بعدما كان ينتظر منهم استصلاح الأراضي في الصحراء. هذه الحقائق، وكما قلنا سالفا، تعكس حماقة الإنسان وخطيئته على الأرض.

4.4.الغرائبية: كوابيس ومتاهات

درج الكاتب، كما جيله في السبعينيات والثمانينيات في الجزائر على الالتزام بقضايا الثورة التحريرية، والثورة الاشتراكية بأسلوب خطي واقعي وواضح. لكن ولوجه عوالم الصحراء، الملأى نهاراتها بالصمت والسراب، ولياليها بالوحشة وحكايات الجن والعفاريت، جعله ينزع إلى خوض تجربة السرد العجائبي. ليخرق بها عالم الواقع، ويتمرد على رتابته وسكونيته، ومسلماته المنطقية. فانفتحت بذلك روايتاه (تماسخت) و(تلك المحبة) على زخم التخييل وشيد واقعا حكائيا جديدا، مكثفا بالرموز.

ولعل تجاربه الكتابية السابقة، التي انتهت بمصادرة روايته الأولى (زمن النمرود) ومنع روايته الثانية من النشر (الخيانة)، وعدم إعادة طبع روايته الثالثة (ذاك الحنين). دفعه لاختراق عالم الكتابة من جديد، لكن بخلق فضاءات نصية رحبة، مفعمة بالاحتمالات والتأويلات والممكنات. فارا بذلك بنصوصه من الإعدام.

في روايته (تماسخت)، والمقتبس عنوانها من أحد القصور العريقة في الصحراء، أعاد الكاتب تجربة قاسية عاشها الجزائريون سنوات المحنة، من خلال قصة مراسل صحفي، هددته الجماعات المسلحة بالقتل، فسافر إلى تونس والمغرب طالبا للجوء. لكن مسعاه يخيب، فيعود إلى وطنه مستسلما للموت. نعيش مع البطل طيلة أحداث الرواية قلقه النفسي، وكوابيسه المرعبة والغريبة بسبب هواجس خوفه من الاغتيال.

أهم ما يشدنا في الرواية، أنها تتواشج إلى حد بعيد مع سيرة حياة الكاتب. يقول ملخصا أبرز مسارات حياته في مقطع سردي مكثف الدلالات، ومركز العبارات على لسان بطل الرواية:

– «من طفولته المطاردة خلال الحرب إلى شقاوة المراهقة إلى ركوب حصان ثورة الجماهير المجنح بحلم سرعان ما تحول تعاسة إلى الرقابة على الضمير إلى أقصى درجات الاستبداد الجديدة تحت نير الشرعيات الدينية إلى زمن يصم الضمير برذيلة الخيانات ونهاية بزرع الحقد في ظل الله.

لا مفر لي بعد إلا إلى صحراء لا يزال الله فيها بلا غضب !». (السائح، 2016، ص .81-82)

يعتبر عدد من النقاد والكتاب توظيف الأحلام في النص الروائي أمرا ليس بالهين، إذ يحتاج فيه الكاتب لطاقة تخييلية كبيرة، تتناسب مع شخوص وأحداث الرواية، ويعكس من خلالها إشكالية ما، وحزمة من الدلالات التي يروم إيصالها للمتلقي. وقد تجلت الغرائبية في رواية (تماسخت) في الأحلام والكوابيس، التي استخدمها الكاتب لتصوير بشاعة وهول المجازر، سنوات الإرهاب في الجزائر.

المتتبع للرؤى الغريبة التي وردت في النص، يلاحظ أنها تتشابه في قواسم مشتركة، منها المسخ والقتل. من ذلك الافتتاحية التي استهل بها الكاتب روايته، والمعنونة بـ (رؤيا)، سرد فيها كابوسا مفزعا. بغل برأس إنسان يحمل سلاحا، ويطارد البطل. وفي رؤية أخرى، يصور لنا البطل وهو يعود إلى بيتهم القديم، زمن الطفولة، فيرى أغنامهم وقد نبتت لها أنياب:

– «وجدتني أسير مع شخص لا أعرفه داخل غابة لما وقفنا على بغل يحتضر، فطلبت إلى مرافقي أن يجهز عليه فتردد قليلا ثم أخرج مسدسه، وإذا بالبغل ينهض برأس رجل (..) التفت إلى مرافقي فلم أجده فصرخت فسمعت صياح ديك يشبه عويل الريح في تماسخت يوم عدت من رقان مرعبا بهول التفجير.». (السائح، 2016، ص.5)

– «كان قد ضل طريقه إلى آخر بيت سكنوه ووجد نفسه دخل بيتهم الأول فرأى برنوس أبيه اتخذ لون صوف أغنامهم التي نبتت لها أنياب كالكلاب..». (السائح، 2016، ص.91)

أيضا هذه الرؤى الغريبة والمفزعة، تلعب دور التشويق والتشويش والإرباك، وتمنح القارئ مساحة كبيرة للتأويل والقراءة، والتفجير اللانهائي للدلالات. كما تمثل دور المرايا العاكسة لنفسية البطل، إن لم نقل لنفسية الكاتب وماضي طفولته الحزين. فضلا أنها انعكاس لتاريخ الجزائر الحافل بالموت.

رغبة الكاتب المتواصلة في التجديد وكسر المألوف في الكتابة الروائية لديه. دفعه أيضا لتجريب السرد الغرائبي في روايته (تلك المحبة). فنجدها تعج بزخم من حكايات الجن والعفاريت، والسحر والغيلان، والخوارق التي نسبها لشخوص روايته. فمن ذلك قصة الغزالة الجنية مروشة، والأميرة ذات المائة ثغر. والحيوان العجيب ذو العينين الذهبيتين، الذي يستدرج الصيادين في صحاري الهقار، ثم يصعد إلى قمة ممر صخري، وينثر عليهم وابلا من الحجارة، فيردمهم.

هذه الحكايات الغريبة، والمثيرة للدهشة، يستحضرها الكاتب لأهداف متعددة، منها: استحضار التاريخ، وتبجيل أهل الصحراء، خاصة منهم الثوار الذين حاربوا الغزاة. وإبراز جمال الحيوانات في الصحراء وسحر جبالها وواحاتها وتميز عاداتها وثقافتها. كذلك للإشادة بالتراث الشفوي الصحراوي وتثمينه.

الخاتمة:

أخيرا، ومن خلال ما تقدم، يمكن القول بأن الصحراء، الملجأ المقدس، والمنفى الاختياري للكاتب "الحبيب السائح" أثر بشكل كبير وواضح على مسار الكتابة لديه، إذ شكل حافزا مهما على الإبداع، ومحرضا أساسيا على التجديد. حيث:

1. مكنت الصحراء الكاتب من خوض تجربة كتابية فارقة في تاريخ الرواية الجزائرية، إذ استطاع كتابة أول رواية جزائرية، مكتوبة باللغة العربية، تتناول عوالم الصحراء وفضاءاتها بعمق.

2. فتقت قريحته، وأثرت رصيده المعرفي واللغوي والمخيالي، ودفعته إلى تجريب أساليب وأشكال سردية جديدة في نصوصه الروائية كتوظيف الألوان والأحلام والغرائبية. واستخدام أسلوب المصنفات التراثية، والمخطوطات العريقة.

3. مكنته من ولوج عوالم الفضاء الصحراوي التاريخية والأنثروبولوجية، والإثنية والمعمارية والثقافية والروحية. وجعلته يتطرق إلى مواضيع جديدة كرحلات الصيد وأنواع التمور والمخطوطات، والقصور التراثية، وعادات وتقاليد ولغة أهل الصحراء.

4. دفعت الصحراء الكاتب إلى التوغل أكثر في التاريخ المحلي والإسلامي، وشجعته على تأريخ حاضر المدن الصحراوية المهمشة، وإنتاج معرفة تاريخية بماضيها المسكوت عنه.

5. أفضت تجربة عنف المدن، والانتقال إلى المنفى الصحراوي إلى صبغ روايات الكاتب بصبغة صوفية، غارقة في فيض من التأمل والسمو والروحانية.

قائمة المراجع

– قائمة المراجع:

-القرآن الكريم.

-بيومي، خالد. (2019). حوار مع الحبيب السائح. مجلة العربي الكويتية، (العدد 733)، 68-75.

-تحريشي، محمد. (2000). أدوات النص. (د ط). دمشق: اتحاد كتاب العرب.

- السائح، الحبيب. (2016). تلك المحبة. (ط.1). الجزائر: دار ميم للنشر.

- السائح، الحبيب. (2016). تماسخت. (ط.1). الجزائر: دار ميم للنشر.

-مرابطي، صليحة. (2012). حوارية اللغة في رواية تماسخت دم النسيان للحبيب السائح. (ط)1. الجزائر: منشورات مخبر تحليل الخطاب. دار الأمل.

-المسعودي، أبو الحسن بن علي بن الحسين بن علي. (1989). مروج الذهب ومعادن الجوهر. (ط1). بيروت: الشركة العالمية للكتاب.

-المناصرة، عز الدين. (1990). جمرة النص. (دط). عمان: رابطة الكتاب الأردنيين.

-نجمي، حسن. (2000). شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية. (ط.1). المغرب: المركز الثقافي العربي.